﴿ خطاب الأستاذ فارس بك الخوري ﴾

هذه هي المرة الثانية التي نجتمع بها في هذا المكان لتكريم هذا الرجل الخالد والعلم الشاهق بين اعلام الشعر والأدب العربي .

اعتاد الناس ان يحتفلوا بالغزاة والفاتحين ويقيموا لهم المواسم والاعياد تذكاراً لفتوحهم وتقديراً لما جلبوا لقومهم من المغانم والخيرات . وفي هذا العصر صارت ثروة الأمة الأدبية أعز عليها وأغلى لديها من الثروة المادية ، وأصبحت الاحتفالات لتكريم رجال العلم والأدب أكثر رواجاً وأوسع انتشاراً وأجلب للرضى والارتياح العام من مثلها لابطال الفتح ومغاوير القتال . ولا غرو ان فتوح العلوم والفنون ابقى على الدهر من فتوح السيوف والنيران فقد زال أشيل وهكتور وبقي هومر كما زال سيف الدولة ودولته وبقي المتنبي على القرون والأدهار .

المرة الاولى منذ اربعين شهراً في ١٧ حزيران سنة ١٩٢٩ اجتمعنا في دار المجمع هذه للاحتفاء بشاعر النيل المحبوب حافظ ابراهيم عند زيارته الاولى والأخيرة لمدينة دمشق وكثيرون من شهدوا تلك الحفلة الشائقة التي أسرع اليها أماثل هذه المدينة ووفود المدن الأخرى ليرحبوا بالزائر العزيز فحظوا برؤيته وكان ملء قلوبهم حباً ووقاراً وملء صدورهم تبجيلاً واحتراماً .

وما زلنا نذكر وقفته الوقورة على منبر هذا المجمع يشكر المحفل الغفير الذي اشترك بتكريمه وأولياء الأمر الذين عرفوا كيف يكرمون وسام الإستحقاق السوري بتعليقه على صدره .

لم يكن في دمشق ولا غيرها من البلاد العربية من يجهل مكانة حافظ فقد سبقه الينا من شعره الرائق رسل كرام جاءتنا عنه بالنبإ اليقين . وانما وجدنا بعد ان أسعدنا الحظ بمجالسته انه لا يقتصر على السيادة بين الشعراء والكتاب بل هو جليس لا يشق له غبار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وسمير لا يسار معه في مضمار ، محدث واسع الرواية وظريف حاضر النكتة ومتكلم نقي العبارة يستهوي جلاسه ويمسك على السامع أنفاسه . يجول في كل حديث جولة العالم المعتمد على علمه والأديب الواثق من نفسه .

في تلك الزورة القصيرة مكن حافظ لذاته في قلوب الدمشقيين حباً صميماً واعجاباً عظيماً وترك لنا واحدة من الذكريات الطيبة التي ما زال الدهر بها ضنينا .

وهذه هي المرة الثانية التي يقوم بها المجمع العلمي لتكريم حافظ ميتاً بعد أن اكرمه حياً . فجع به الأدب العربي بمنظومه ومنثوره فانهد له ركن من اركانه الراسخة وتداعى له صرح من صروحه الباذخة وفقد مجمعنا العلمي به عضواً من أنجب اعضائه وأضاع بمصرعه ابا من أبر آبائه .

الأمة العربية اليوم ليست فقيرة بشعرائها فانهم يعجزون العد وتعيا باسمائهم الحوافظ . وخزائن الأدب العربي ليست بحاجة لديوان من الشعر يضاف اليها فان فيها من الدواوين ما يجمع اكداساً .

ما أكثر الشعراء في سوريا والعراق . انك لا تكاد تقرأ صحيفة أو مجلة الا تراها مزينة بقصيدة لشاعر معروف أو مجهول . ولا يحدث في البلاد حدث كبير أو صغير الا تتسابق قرائح هذا الجيش من الشعراء لتدبيج القصائد الجيدة في وصفه وتفصيله وبينما كان الذين يقرضون الشعر في الجيل الماضي نزراً يسيراً صاروا اليوم جماً غفيراً .

بعد ان وضعت قواعد الصرف والاعراب وتعينت أوزان الشعر بالتفاعيل وصار علم العروض في متناول الجميع لم يعد نظم الشعر سليقة لا يملكها الا من منّ الله عليه بها كما كان امره عند العرب قبل الاسلام وفي صدره . بل أصبح صناعة يستطيعها كل من تعلمها ومارسها فيأتي بالكلام الموزون المقفى ويستعين بمحفوظاته ومطالعاته ليستعير المعاني ويصوغها في قالب خاص منطبق على شرائط الوزن والقافية فيعد نفسه انه قال الشعر ويجد من ينعته به وينظمه في سلك الشعراء .

بيد أن الشاعرية ليست بهذه السهولة التي يتخيلها فيها دارس علم العروض فالمركب وعر والسلم بعيد المدى وليس كل من نظم القصائد شاعراً كما أشار الى ذلك حافظ بقوله :

قالوا صدقت فكان الصدق ماقالوا ما كل منتسب للقول قوال

والشعراء لا يخلدون بكثرة ماينظمون بل يخلدون بما يمازجون به من قريضهم طباع الناس وأساليب التفكير الرجيحة ويعالجون الأدواء الاجتماعية ويحللون العواطف النفسية باوصاف منطبقة على الحقائق الواقعة التي يشعر بها الخلق في أطوارهم المعاشية • وأنت ترى أن الشعر الذي يثير فيك الاعجاب هو ما تجده مؤتلفاً مع ماعندك من الشعور وموافقاً لما في نفسك من فكر عميق لا تقدر على تصويره بالكلام أو مثيراً فيك عزة كامنة أو مذكراً اياك بخلق ترضاه فان كان ذلك من طباعك وسجاياك اعتززت به وافتخرت وان لم يكن تمنيت لو كان لك منه نصيب • وهذا مطلب صعب المرتقى كما وصفه أحدهم :

الشعر صعب وطويل سلمه   اذا ارتقى فيه الذي لايعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه   يريد أن يعربه فيعجمه

وهذا الذي جعل أكثر العلماء المتقدمين وأشهر الأدباء الأولين مثل ابن خلدون وابن المقفع يتجانفون عن ركوبه ويتحامون النزول في مضماره • وعند ما سئل ابن المقفع لماذا لا تنظم الشعر قال : ما يرضيني لا يلبيني وما يلبيني لا يرضيني • فلو حذا حذوه الذين لم يخصهم الله بسجية الشعر وتركوا أمثال هذا العمل لأمثال حافظ من النابغين لخلت خزانة شعرنا من توافه الكلام • أن حافظاً لم يكن مكثاراً في نظمه فكان لا يقول القصيدة الا اذا دعاه اليها داع واحب التلبية فكانت قصائده متباعدة الآجال تطلع على الناس مثل ورد الربيع بفضارتها ومثل فيض النيل بجزالتها فلا تكاد تصدر عنه الا تتخطفها العيون والآذان وتحتويها العقول والأذهان •

قصائده الشرد السائرا   ت لا يختصصن من الأرض دارا
اذا هن فارقن مقوله   وثبن الجبال وخضن البحارا

وكم من شاعر كالسموأل احرز مكانة في الصف الأول بين الشعراء بقصيدة واحدة وشاعر بقي في غيابة الخمول وله مئات أو الوف من القصائد •

كثيرون من الشعراء سئموا الحياة وتكاليفها أو اناخ عليهم الدهر فتمنوا الموت ليخلصوا من آلام الحياة ولكن قليلون منهم وصفوا هذه الأمنية بمثل ما وصفها حافظ :

سلام على الدنيا سلام مودع   رأى في ظلام القبر انساً ومغنما
أضرت به الأولى فهام بأختها   وان ساءت الأخرى فويلاه منهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهي رياح الموت نكباء واطفئي سراج حياتي قبل أن يتحطما
فما عصمتني في زماني فضائلي ولكن رأيت الموت للحر أعصما
فياقلب لا تجزع اذا عضك الأسى فانك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعي فلا سيل دمع تسكبين ولا دما
ويا يد ما كلفتك البسط مرة لذي منة أولى الجميل وأنعما
فلله ما أحلاك في انمل الردى وان كنت أحلى في الطروس وا كرما
ويا قدمي ما سرت بي لمذلة ولم ترتقي الا الى العز سلّما
فلا تبطئي سيراً الى الموت واعلمي بان كريم القوم من مات مكرما
ويا قبر لا تبخل برد تحية على صاحب وافى علينا وسلما

وهذا كلام يحلي مرارة الموت ويحرض النفس على اقتحام غمرته بالطمأنينة والحبور .

وقع احتلال مصر منذ خمسين سنة فرافق حافظاً منذ كان صبياً الى أن أدركته المنية فقضى نحبه وفي نفسه غصة على حال قومه وبلاده اظهرها في كل قصيدة من قصائده . وقد جرت في زمانه جميع الحوادث الخطيرة التي صاحبت هذا الاحتلال وكانت سبباً لتوليد الروح الوطني وانبعاث الأماني القومية في ذلك القطر الشقيق ويسّرت مجالاً فسيحاً لشعراء وادي النيل ليثيروا باشعارهم النعرة الوطنية ويسكبوا على بزورها النامية قطرات الري والإنعاش ويربوا في الناشئة المصرية هاتيك الروح الوثابة التي هي أساس نهضة الأقوام وعليها يتوقف استقلال الشعوب .

نجد قصائد حافظ ملأى بنقد الحياة الاجتماعية في مصر خاصة وفي بلاد العرب عامة وفيها من الجرأة والصراحة بذكر الحقائق المؤلمة مانبه القوم الى مواطن الضعف في نظامهم الاجتماعي وعدم كفاءته للثبات في هذا الكفاح العمراني الذي أوجبه تزاحم الشعوب الحديثة . فهبوا الى الدرس وتلافي النقائص الموجودة واصلاح الفاسد من مرافق حضارتهم وكان هذا التحريض عاملاً قوياً لتلك النهضة الجريئة التي دشنت مصر عهدها وسبقت بها غيرها من الأقطار الشرقية فكانت لها قائداً ودليلاً .

انظروا الى مثال من مصارحته قومه منذ ثلاثين سنة يذكرهم بتقصيرهم في سباق الحياة ويحرضهم على النهوض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل في مصر مفخرة ... سوى الألقاب والرتب
وذي ارث يكاثرنا ... بمال غير مكتسب
وفي الرومي موعظة ... لشعب جد في اللعب
أروني بينكم رجلاً ... ركيناً واضع الحسب
أروني نصف مخترع ... أروني ربع محتسب
أروني نادياً حفلاً ... باهل الفضل والأدب
وماذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب
وماذا في معابدكم ... من التبيان والخطب
وماذا في صحائفكم ... سوى التمويه والكذب
فهبوا من مراقدكم ... فان الوقت من ذهب
وهذي أمة اليابان ... جازت دارة الشهب
فهامت بالعلى شغفاً ... وهمنا بابنة العنب

فهو قد صدق قومه حين كاشفهم بحقيقة حالهم والصديق من صدق لا من صدق .
رحم الله حافظاً ونفع قومه العرب بأدبه العالي وأخلاقه السامية . وانظر الى قوله بوصف حال مصر وحاله مع المحتلين .

فقد غدت مصر في حال اذا ذكرت ... جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب
كأنني عند ذكري ما ألم بها ... قرم تردد بين الموت والهرب
اذا نطقت فقاع السجن متكأي ... وان سكت فان النفس لم تطب

وهذا عين ما يشعر به ولا يستطيع وصفه بمثل هذه الديباجة الرائعة كل من رأى في قومه ضيماً فهو يتردد بين الاقدام لدفعه فيسحقه كيد الظالمين أو السكوت على الأذى أو الاغماض على القذى فيبقى حليف الغصة وصريع الهموم :
بماذا يرثى حافظ وهو أمير الرثاء وها هي مراثيه للأفذاذ الذين خلدهم بآيات رثائه المثل الأعلى في الاعجاز والابداع . حتى ان أمير الشعراء تمنى هذه الأمنية في مطلع قصيدته التي رثى بها حافظاً حيث قال :

قد كنت أوثر ان تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الاحياء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولست أجد للقول في رثاء حافظ وأصدق عليه وأحق به مما قاله هو نفسه في رثاء الشاعر الكبير محمود سامي باشا الباوردي :

لبيك يا مؤنس الموتى وموحشنا ... يا فارس الشعر والابداع والجود
لبيك يا شاعراً ضن الزمان به ... على النهى والقوافي والأناشيد
تجري السلاسة في اثناء منطقه ... تحت الفصاحة جرى الماء في العود
في كل بيت له ماء يرف به ... يغار من ذكره ماء العناقيد
لو حنطوك بشعر أنت نائله ... غنيت عن نفحات المسك والعود
لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة ... من كنز حكمته لا جوف أخدود
وكفنوه بدرج من صحائفه ... أو واضح من قميص الصبح مقدود
وأنزلوه بأفق من مطالعه ... فوق الكواكب لا تحت الجلاميد
وناشدوا الشمس ان تنعي مناقبه ... للشرق والغرب والأمصار والبيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net